خمسة في سيارة

١٠

اذا كان القارىء قد سلّ الحديث الذي اتينا عليه في ما تقدم هذا الجزء من اجزاء المقتطف فليس اللوم على الراوي بل على طبيعة الاشياء. فالحديث الذي مرّ كان حديثاً في قطار سكة حديدية داخل عربة ضمت اصحابنا الخمسة ضمًّا محكماً فلم يكن لهم مندوحة عن ان يتكلموا سواء اصابوا ام ضلّوا الصواب. وكان القطار هذا يسير بهم بين «برن» و«انترلاكن». وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب وبدأ برد الجبل ينعش اجساماً اضناها الحرّ

وانترب الركب من انترلاكن فصمتوا واخذوا ينظرون الى جبال سويسرا وبحيراتها فان هذه البلاد مشهورة كما يعلم الناس بما فيها من بحيرات وما يرتفع فيها من جبال

وحاذى القطار البحيرة الاولى التي الى يمين انترلاكن وهي تكاد تكون سوداء على خلاف البحيرة الثانية التي الى شمالها فانها زرقاء الى شيء من الاخضرار

وانترلاكن هذه جميلة لا نزاع في الامر ولكنها صغيرة لا تعدو ان تكون سوقاً واحدة مكتظة بالفنادق المكتظة هي الاخرى بمتكلمي الانكليزية والالمانية فهم عماد هذه الناحية من سويسرا وركن معاشها المكين

اما تكتة البلد في موقع في جبل بعيد لا يزال مكموًّا بالثلوج ضيفاً وشتاء يذهب اليه الراغب في سكة حديدية تخترق الثلوج ثم يصعد في سكة جبلية هي فتق شُقّ من علٍ في الثلج فيسير يحيط به الثلج من الجهات الاربع فاذا انتهى الى آخر المحطات اذا به بآلة رافعة تصعده الى القمة حيث مطعم يأكل فيه ويشرب وميزان الحرارة هابط الى ما تحت الصفر. واسم هذا الجبل في لغتهم «الامرأة الشابة» (Jungfrau). اما صاحبنا المصري فخالف اصول المجاملة الشرقية وقال لرهطه اذهبوا انتم الى هذه الثلوج اما انا فباقٍ في انترلاكن

وانك لا تدري ما الذي دعاهُ الى التخلف عن القوم. أتعبٌ اضناهُ أم خوف البرد ام رغبة في مشاهدة انترلاكن كما يشاء لم اتتصاد لفقة السكة الحديدية فانها باهظة لا معنى

لها ام هي كل هذه الاسباب ضمّ بعضها الى البعض الآخر . ولكنهُ بقي فرأى من جمال انترلاكن ما لم يستطع صحبهُ ان يروهُ . ذلك انك اذا وقفت بين ما شئت منها ونظرت الى الجبال امامك رأيت منظراً يأخذ بمجامع القلوب . هذه الى اليمين جبال خضراء تماكستها الحراج والغابات وتلك الى الشمال جبال سوداء قاتمة مما تلبد عليها من الغيوم وفي الوسط « المرأة الشابة » بيضاء لا بياض بعده . تحسبها في الوسط وهي بعيدة عما حولها بعداً شاسعاً اما الجبال الاخرى فقريبة منك كل القرب

فلما عاد الصحب من رحلتهم وتعشّوا عليه حكاية الثلوج في « المرأة الشابة » وارام هو ما تمتّع به نهاره قالوا انك كنت من الكاسلين . وعلم انه كان احكم منهم واعقل ولكنهُ اسرّها في نفسه ولم يبدها لهم

ومن اجمل ما في هذا البلد ايضاً بناء فخم يدعونهُ الكورسال وفي فرنسا كازينو . عمارته جميلة في وسط حديقة غناء ترى في ارضها ساعة كبيرة صنعت كلها من الازهار تدور عقاربها دوراناً كما تدور ادق الساعات السويسرية صنعة

وتساءل القوم هل يقيمون في انترلاكن يوماً آخر او يذهبون الى لوسرن

قال المصري بل نعجل الى لوسرن

الانكليزي — انك متيم بسويسرا ولا تحلو لك الاقامة الا في فرنسا

المصري — لا ولكني اعجب لقوم يتخذون لعاصمتهم اسماً هو « الدب » ويطلقون على جبل مكسوّ بالثلج اسم « المرأة الشابة » ولله في خلقه شؤون

الافرنسية — ان هذا من جبال شاموني فهناك العظمة يتخللها اللطف . وهنا العظمة يسودها العنف

وعادوا الى القطار وقطارات السكك الحديدية في سويسرا خير قطارات العالم — يمينهم لوسرن . فجأزها والسماء تطش طشّاً خفيفاً والشمس لا يعلم لها وجه واليوم يوم احد يوم خرج به كل من هبّ ودب في لوسرن يتنزهون في بحيرتها . فضاقت مقاليد صاحبنا المصري وكان قد شبع من النظر الى البحيرات حتى ارتوى وكان قد ملّ المطر حتى ابتلّ واشتاقت نفسهُ الشمسَ حتى المحرقة ، فكيف وهو سيمكث اسبوعاً متوالي الايام في بلد الشمس فيها منيّةٌ والمغرب لا يحول

فحفظهُ هذه الحال فلبث يزور الحديث والقوم من حوله يضحكون مرحين

***

اما شهرة بحيرة لوسرن فقد طبق ذكرها الخافقين فهي بحيرة جميلة حقّاً . جميلة بنفسها

ان صحّ هذا التعبير وجميلة بالجبال التي تحيط بها وهي جبال تكاد تكون سوداء ترتفع وتنحدر فجأة فتراها كأنها قدت الى جانب الماء قدًّا منتصباً وترى في اعاليها النادق تصل اليها بجميع اسباب المواصلات

ولكنها ليست بالبحيرة الضاحكة او الباسمة مثل البحيرات في فرنسا فلا تدري أكسبت البوسة من سكانها ام اكتسبوها هم منها . ولم يكن من المعقول ان يزور القوم لوسرن ولا يطوفون ببحيرتها فركبوا فلكاً من هذه الافلاك التي تمخر دايرة حولها والناس يتزاحمون عليها بالمناكب ولكنك لا تكاد تسمع لهم صوتاً وهذا غير ما في خلق هؤلاء الناس . وجلسوا كما شاءت مقادير الازدحام متباعدين واتخذ المصري مكاناً في مقدم السفينة اضاءهُ عن الرفاق وحانت منهُ التفاتة الى اليمين فاذا بجانبه رجل مديد القامة خلاسي اللون كهل كاد يطرق ابواب الشيخوخة يجيل نظره في الناس ثم يخرج من جيبه اشياء يلحظ بها

فولاه صاحبنا ظهره وقال بعداً للقوم المجاورين. ولكنهُ ما لبث ان احس يد تربّت على كتفه وقائل يقول اوحيداً انت هنا ؟ الا تشعر بشيء من الحنق على هؤلاء النصارى يمرحون ويسرحون في ايام احادهم ونحن تضيق بنا البيوت

فاجفل صاحبنا ونظر لنظرة لو تجسمت لاردتهُ احتقاراً فتجاهلها الرجل . الست يهوديًّا . انا يهودي

المصري (في ضميره) قاتل الله الرجل . ما الذي جعله يهودي . اقبح انا منظراً الى مثل هذا المقدار . وهل يُعدُّ اليهود بشعين ؟ لا . وماذا على ثيابي من آثار الذل ؟ واليهود قوم ذوو يسار يقتنون هنداماً . ومالي نفرت لهذه الشبهة وانا رجل افاخر بابتعادي عن التعصب جنسيًّا كان ام دينيًّا. حقاً لقد اخطأت الى الرجل فلاكفرنَّ عن ذنبي (متكلماً) عفواً ايها السيد فقد كنت ضايع الفكر متبرماً بهذا الطقس البارد. انا ابن عم لك من ارض الفراعنة وكل الناس عندي واحد من حيث الدين . وكان اليهودي اوتاب في الجواب المبهم ولكنهُ يحب الكلام مهما ابتعد عنهُ المخاطب فاخذ يسرد تاريخ ابيه وامرأته وتاريخ تجارته الواسعة بين العراق واوربا ويقصُّ احاديث سياحاته ونفقاته الكثيرة في الفنادق وفي مسارح اللهو ومواطن السرور ثم يعرّج على ما اشتراه من حلى لامرأته وما دفع ثمناً لبذلته ولحذائه حتى ضاق صدر المصري ولا حيلة به بالابتعاد عنهُ ولا طاقة لهُ ان يلقي به في اعماق اليم .وقدر الله ووقفت الفلك في ميناء من موانئ البحيرة فتظاهر المصري بالنزول

اليهودي — هل من حاجة اصير فيها الى محبتك

المصري — شكراً والف شكر فاني ذاهب لملاقاة اصدقاء لي اقسمهم واضاعوني

اليهودي — اذا رهن اشارتك. تمال زرني في الفندق في لوسرن استعلك عالا تعرفهُ فيها فيرول صاحبنا غير محجب ولجأ بعد لأي الى اصدقائهِ يقص عليهم حكاية ابن اسرائيل

ولما دار الفلك دورتهُ عادوا الى لوسرن وتموا فتدقهم وما لبثوا ان قرع لهم جرس العشاء فجلسوا الى مائدة اعدت لهم وما كادوا يهمّون بالطعام حتى لفت نظرهم حسناء تدخل القاعة بيضاء بضاء فتنة للناظرين يتبعها رجل تفرس بهِ صاحبنا المصري فاذا بهِ صاحب حديث الفلك ابن عمهِ الاسرائيلي

ولا تسل عما ساورهُ وتنتفز من شتى الافكار. فكم لعن نفسهُ ولام خلقهُ. كيف يضيق صدرهُ لرجل اسلفهُ الود فردّهُ ردًّا غليظاً ؟ وكم شفع سحر هذه الحسناء بسماجة ذلك البليد

وادار الاسرائيلي نظره متملقاً بالجالسين فلما رأى صاحبنا المصري هشّ وبشّ مسلّماً فسُرّي عن صاحبنا وغفر لصاحبهِ وقومهِ ذنوبهم

ولما تعشى القوم نهض الاسرائيلي عن مائدتهِ وتقدم الى اصحابنا فقام لهُ المصري مسلّماً وقدمهُ الى الرفاق فسبقهُ الرجل وسمى نفسهُ اسماً لم يلتقطوا من فتاته الاّ كلمة ابراهيم. فكانوا اذا خاطبوهُ قالوا سيو ابراهام اما صاحبنا المصري فدعاهُ ابا اسحاق. وجاءت السيدة وتعارف القوم فاذا بها زوجهُ ولم يكن اسمها ساره

واختكر ابو اسحاق الحديث فكان اذا ذكر اللباس فكّ ازرار صدارته واراك حرير قميصهِ مطبباً بالصنف وبالصنعة او اخرج ربط عنقه وبدها فرجةً للجالسين اما زوجهُ الصالحة فكانت رزينة صامتة لا تتخرج بالصمت الى لا ولا الى نعم

ونهضت السيدتان الانكليزية والافرنسية معتذرتين بالتعب قاصدتين الى النوم اما فراراً من زُرْءة الرجل او حسداً من جمال المرأة واقضّ المجلس

حتى اذا كان النهار من اليوم التالي واجتمع الرفاق اعادوا ذكر ابي اسحاق حديثاً عربضاً للشر وامتازت بهِ من بينهم السيدتان

سامي الجريديني